النجم الذي هوى

زكي مبارك

بقلم تلميذه وصديقه

الأستاذ محمد رجب البيومي

قابل المتأدبون في العالم العربي نعي الدكتور زكي مبارك بمرارة لاذعة، فقد سموا قلمه البليغ منذ أربعين عاما رن في مختلف الصحف، فيثير العواصف الهوج ناقدا مصاولا، ويرسل النغم العذب شاعراً ملهما، ويتابع الأحداث الأدبية والاجتماعية مؤرخاً فاحصاً، ويدبج الأبحاث العلمية والفكرية مؤلفا باحثا، ثم شاءت طبيعته أن يترك جهاده الدائب في دنيا الأدب والفكر، ويستريح بعض السنوات مما كابده في نضاله الذهني، حتى أدركه الموت في زلة قدم شجت رأسه ومزقت أعصابه، فطارت روحه إلى السماء تاركة وراءها عبرات تترقرق في محاجر الأدباء، وزفرات تتصاعد من صدور تلاميذه وزملائه على السواء.

ولقد بدأ الدكتور حياته — كأكثر أدباء عصره — طالبا بالأزهر الشريف، وكانت لديه حافظة قوية ساعدته على استيعاب كثير من روائع الشعر العربي في سن مبكرة، ووجد الأستاذ المرصفي مولعا بالأدب والشعر بين أساتذة الأزهر فلازمه دروسه، ونقل أبحاثه في أوراقه، وصاحبه في سمره ولهوه وجده وشغله، وجعل يعرض عليه ما تجود به قريحته الناشئة من نظم ساذج فيفسح له مجال التجويد والإبداع بما يلقنه من توجيه وتثقيف، وقد بدأ الطالب الأزهري يتصل بالصحف، وينشر إلى جانب قصائده التقليدية فصولا إنشائية يبذل في تسطيرها ما يملك من جهد وإتقان، ودفعه طموحه إلى دراسة اللغة الفرنسية في فترات يختلسها من حياته الأزهرية، ثم دفعته عزيمته إلى الجامعة المصرية سنة ١٩١٦ فأصبح طالبا يتميز بين طلابها بالنشاط والكفاح، ووجد بين أساتذتها شيخا يشبه أستاذه المرصفي في تعلقه بالأدب وكلفه بالنقد، فأخذ يستمع إلى محاضراته، ويدون في صحائفه جميع ما يصله من أستاذه الكبير محمد المهدي، وقد عكف في هذا الطور من حياته على مختارات البارودي، فحفظ أكثر ما بها من قصائد، ومالت به عواطفه إلى الغزل والنسيب فاستظهر رقائق العباس بن الأحنف، وحجازيات الشريف، وروائع مهيار وجميع ما نقله البارودي عن الشريف وابن سنان والتهامي، وقد خرج من ذلك كله بثروة طائلة في الذوق والشاعرية والأسلوب، وأخذ يجد الغذاء الدسم الذي يوجهه إلى عشاق الأدب في صحيفة الأفكار، فتطلعت الأنظار إلى الأديب الناشئ وعرفت فيه بوادر الألمعية والإبداع

وحين اشتعلت الثورة المصرية الأولى سنة ١٩١٩ جرفت في تيارها زكيا مباركا، فساهم بقلمه في إذكاء العاطفة الوطنية، وخطب مع الأستاذ القاياتي في أول احتفال وطني بعيد الجهاد، ومضى إلى الأزهر الشريف، فجعل من منبره مذياعا قويا ينشر على الملأ حماسته واندفاعه، وكان الأستاذ أبو العيون ينتدبه للخطابة بالفرنسية حين يحضر إلى الأزهر بعض الأجانب من الفرنسيين، وقد أدى ذلك إلى غضب السلطة الإنجليزية فزجت به في غياهب الاعتقال، وقالت عنه جريدة الأهرام بعد أن نشرت نبأ اعتقاله بتاريخ ١٩٢٠/١/١ « إنه شيخ معروف بذلاقة اللسان والنظم الرشيق وله في كل مجتمع كلمة يلقيها أو قصيدة يتلوها، وأصبح في معتقله بالإسكندرية زميلا للقاياتي ودراز وأبي العيون وغيرهم من خطباء الثورة الأحرار »

وقد تقدم إلى نيل إجازة الدكتوراه في الآداب سنة ١٩٢٤

بعد أن نال إجازة الليسانس ، فكتب رسالة عن أخلاق الغزالى ، وكان الشاب الجامعى ممتزا بمواهبه فهاجم حجة الإسلام مهاجمة قاسية ، وتكشفت أثناء المناقشة جوانب خطيرة أثارت كثيرا من الحاضرين عليه ، فتقدم الأستاذ اللبان لمناقشته ، واحتدم الحوار احتداما أثار الضجة واللجاج ، وأعلن رئيس اللجنة الدكتور منصور فهمى أن الرسالة الجامعية محاولة عقلية يخطئ فيها الطالب ويصيب ، وذلك لا يمنع من نجاحه بدرجة مشرفة. ثم انتقل صدى الرسالة إلى الصحف ، فاندفع الدكتور مبارك يناظر الأستاذين الشيخ يوسف الدجوى والشيخ أحمد مكى وغيرهما من كبار العلماء مناظرة حادة ، مهدت له طريق الشهرة والذيوع، وإن عادت على عقيدته ببعض الأرهام

والحق أن الدكتور مبارك كان يحرص على مخاصمة الجمهور فيما يكتب ويذيع ، فهو يتعمد مزالق الزيغ تعمدا ، كأن له حظا فى الثورة والضجيج . ألف فى هذا الدور كتابيه « حب ابن أبى ربيعة » « ومدامع العشاق » فقذف بنفسه فى مطارح مخيفة ، إذ أسهب فى الحديث عن النبوة والعشق ، ومنزلة الهيام من الدين ، مما يثير عليه الدوازع ، وإن جذب بذلك كثيرا من الشباب إلى رياض الأدب العربى ، فهاموا بالشعر الجيد ، والنظم البليغ ، وعرفوا الكثير عن عمر وكثير وجميل !! وقد انتفع الدكتور بمختارات البارودى فى فصول كتابه «مدامع العشاق» فنقل باقات عبقة من زهورها اليانعة وقدم إلى القراء كثيرا من رقائق ابن رزيق والطغرائى وابن نباتة السعدى وابن الخياط ، بعد أن كانت الكثرة الغالبة من الشباب لا يتجاوزون البحترى والمتنبى وأبا تمام !!

وقد عين سنة ١٩٢٥ معيـــدا بكلية الآداب ، وكان يشرح لطلابه كتاب « مغنى اللبيب » فى النحو بتكليف من الدكتور طه حسين . وأكد صلته فى هذه الفترة بجريدة البلاغ فكان يكتب الصحيفة الأدبيـة بها دون انقطاع . ولم يعش فى ماضى الأدب القديم ، بل أخذ يتابع الحركة الفكرية فى مصر ويتعهدها بالنقد والجدل العنيف . وقد كتب فصولا طويلة عن شوقى ومعارضاته للشعراء ، وهى مجموعة فى كتابه « الموازنة بين الشعراء » مع أخوات لها تشابهها فى التحليل والاستنتاج ، وقد لاحظت وأنا أطالع هذه الموازنات تعصبا ملموسا لشوقى من زكى ، فهو يفضله دائما على من يزنه به ، وكنت أعجب حين أجد المبارك لا يستر ميوله الشخصية من القراء ، وأحار فى تعليل ذلك ، حتى عرفت من بعض ما كتبه الدكتور ، أنه أخـذ مبلغا كبيرا من ذهب أمير الشعراء ، فرفعه إلى السماء . ولست أريد أن أخفض من قيمة المعارضات الشوقية ، فهى تحتل مكانها فى التاريخ الأدبى دون نزاع ، ولكنى أعلن أن الدكتور قد خلع عليها من الإطراء ذيولا ضافيات

ولم يقنع مبارك بدرجته العلمية التى نالها من الجامعة المصرية، فسافر إلى باريس ، واتفق مع جريدة البلاغ أن يمدها بمقالاته وأبحاثه نظير ما تمنحه من أجر يذلل به صعوبة الاغتراب ، وأخذ يوالى البلاغ بآثاره العلمية تارة ، وبمشاهداته وخطراته عن باريس تارة أخرى ، فوق ما يضطلع به من تحضير رسالة علمية لنيل الدكتوراه من السوربون ، وتجمع له من ذلك كتابه المعروف عن ذكريات باريس !! ثم وفقه الله فوضع رسالته عن النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى ، وهو كما يعلم القراء أخصب عهود العصر العباسى وأحفلها بالإنتاج الفكرى ، والشخصيات اللامعة من ذوى النقد والصيال . وقد نال رسالته القيمة إجازة الدكتوراه فى الآداب من السوربون . وأقيمت له ثلاث حفلات تكريمية بباريس والقاهرة والإسكندرية . ويخيل إلى أن كتاب زهر الآداب للحصرى قد أوحى إليه باختيار موضوع رسالته ، فهو سجل حافل بالآثار الفنية لأعيان البيان، وقد شرحه الدكتور وحققه ، ووضع فهارسه وعرف بأعلامه ، فأتاح له ذخيرة ثمينة تستحق العرض والتحليل ، فاندفع إلى تسطير رسالته العظيمة ، التى يمدها الأستاذ أحمد أمين أعظم آثار الدكتور وأجدرها بالاهتمام

ولكتاب النثر الفنى — على رغم مكانته المحترمة — نقدات توجه إليه ، وقد اعترف بها المؤلف ، ولعل أبرزها ما نلاحظه فى أسلوب الدكتور عامة من سيطرة عواطفه وأخيلته على براعه ، فى الأبحاث الفكرية الدقيقة ، فقد ارتضى لنفسه أن يكون شاعرا فى تحقيقاته العلمية أو يستمد وقودها من القلب والعقل والخيال . وقد قال زكى من ذلك « وهذا عيب فى التأليف ولكنه

عيب جميل يقع من المؤلفات العلمية موقع الخال من خد الحسناء»

وحين عاد الدكتور من باريس لم يركن إلى الدعة والراحة ، بل واصل حملاته الأدبية فى مختلف الصحف ، وكان له مع أكثر أدباء العصر الحاضر سيال وملاحاة ، فهو يقرأ القصيدة أو المقالة أو الكتاب لغيره من الأدباء ، فتنفسح أمامه طرق واسعة للاختلاف والنقاش ويثيرها معركة عنيفة ، ينتشر غبارها فى الأفق ويكثر حولها الضجيج والخصام ، وقد حاولت أن أحصر جميع من ساجلهم الدكتور مبارك فأدركنى العجز القريع الا ومرت أمامى أسماء كثيرة لهؤلاء المتحاورين مع الدكتور فى حومة النقاش ، وفى طليعتهم أحمد زكى باشا وعبد الله عفيفى ويوسف الدجوى وسلامة موسى ، وحسن القاياتى ومحمد عبد المطلب ، والسباعى بيومى ، ومحمد مسعود ، وغيرهم ... ومع هؤلاء أناس ناقشهم الدكتور وآثروا الراحة فلم يتركوا معه فى ميدان كطه حسين وعبد العزيز البشرى وأحمد أمين وفريق من أعلام الأدب فى الشام والعراق

ولقد كان زكى مغوارا بمعاركه الأدبية ، وطالما تحدث عنها فى كثير من التيه والإعجاب ، وقد قال عن نفسه « أنا لا أرى الحياة إلا فى حومة القتال ، وليس الأدب عندى مزاحا أتلهى به فى الأسمار والأحاديث وإنما هو عراك فى ميادين الفكر والخيال » كما نقل فى آخر الموازنة بين الشعراء قول بعض أصدقائه عنه « إن مباركا رجل ثائر لا تروقه الحياة ، ولا يستطيب العيش إلا بالغزوات العلمية ، ولو جاز وصف المساجلة كمعركة حربية ، وتشبيه الأدباء بالجيش لمثلت مباركا ضابطا من الضباط يزدان صدره بالأوسمة والنياشين لكثرة ما نازل من الأقران »

وقد كان مبارك يعتقد أنه طالب علم مدى الحياة ، فهو لا يعرف للاجازات العلمية حدا تقف عنده ، بل يحب أن يجلس دائما أمام الأساتذة ، مهما امتدت به السن ، ونال الدرجات ، ليجد أمامه فرصة متاحة للصيال والنقاش . وقد تقدم بكتاب ضخم عن التصوف الإسلامى وأثره فى الأدب والأخلاق لينال الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة فؤاد ، وتألفت لجنة من كبار أساتذة الجامعة لمناقشته وحسابه ، فمنحته إجازة الدكتوراه فى الفلسفة بمرتبة الشرف ، وكتاب التصوف مشهور متداول ، ومزيته الصحيحة — كما قال المرحوم جاد المولى بك « أنه لم يؤلف للدعوة إلى التصوف أو الهجوم عليه ، وإنما ألفه مبارك فى نقد التصوف فبين ما فيه من محاسن وعيوب ، وكشف عما يتضمنه من قوة وضعف ، فى صراحة رائعة وأسلوب متين » وأجدنى مضطرا إلى أن أذكر أن الروح الأدبية قد جمحت بالدكتور فى بعض مواضيع الكتاب ، فلم تحدد بعض حقائقه العلمية تحديدا يتكشف للقارئ من أقرب طريق . وقد أجهدت نفسى كثيرا لأفهم ما قاله الدكتور عن وحدة الوجود ، فلم أخرج بطائل مع أنه ملأ الدنيا تشدقا بما كتبه عنها فى التصوف. وقد أكون ذا عقل واهن لم يستطع السير فى هذا المنعرج الدقيق

وكان الدكتور قد خصص جانبا من كتابه للبحث عن المدائح النبوية ، وأطال القول فى صلتها بالتشيع ، كما تعرض إلى الكميت ودعبل والشريف وغيرهم من شعراء البيت الهاشمى ، واتجه إلى البردة ومعارضاتها ، وما تمخضت عنه البديعيات النبوية من مباحث أدبية هامة ، ولكن اللجنة المؤلفة لبحث الكتاب قد أشارت بحذف هذا الجانب من القول لبعده عن مدلول التصوف ، فظهرت المدائح النبوية بعد ذلك فى كتاب خاص ، ولعله أول بحث مفصل يعنى بتاريخ هذا الباب ، وقد مزج فيه المؤلف بين العرض والتحليل والتاريخ والاستنتاج فى طراز موفق شفاف

وقد كان انتداب زكى مبارك إلى التدريس بدار المعلمين العالية فى بغداد ذا أثر هام فى حياته الأدبية ، إذ أن الفترة القصيرة التى مكثها بالعراق قد ألهبت قريحته وأذكت نشاطه فسطر مئات الصحف فى الدعوة إلى المروءة ، وتوثيق الصلات بين القاهرة وبغداد ، واتصل برجال الفكر والسياسة فى القطر الشقيق فنزل بينهم نزلا كريما ، وقد وصف الآثار العربية ، بحاضرة العراق وصفا بديعا ، كما نقل للقراء فى شتى بقاع العربية ، صورا خلابة عن غابات النخيل فى البصرة ، وسجع الحمائم فى الموصل ، وبقايا السحر فى بابل ، ورسم تألق القباب العلوية فى النجف والكرخ ، وألقى عدة محاضرات بنادى القلم العراقى ، وقاعة كلية الحقوق ، ونادى المثنى ، والإذاعة العراقية ، حول الثقافة العربية ، وجمع كتاب ليلى المريضة بأجزائه الثلاثة كثيرا

من آرائه التي تحدد صلة مصر بالأمم العربية ، كما شرح معضلات الشباب في مصر والعراق موضحا ما يراه من الحلول والأدواء... ونحن نحمد للدكتور هيامه بالوحدة العربية ، وكفاحه من أجلها أطيب كفاح ، وللقارئ أن يستعرض عناوين مقالاته في كتاب وحي بغداد ليعلم أي جهد قام به الدكتور في توثيق الصلة بين القطرين ، فقد تكلم عن الدروبة في مصر تارة ، وعن المذاهب الأدبية المصرية طورا ، وعن الجامعة العراقية وما يجب أن يبذل في سبيل إنشائها من مشاق ، ... وحين رجع إلى مصر ، تحدث عن الفن المصري في العراق ، وعن الأندية الأدبية في حاضرة الرشيد ، وعن نهضة التعليم في دار المأمون ، وأطنب في ذكرياته عن دجلة والفرات والرصافة والجسر وليلى وظمياء ، وفي كتابه « ملامح المجتمع العراقي » أحاديث طيبة عن رجال العراق وقد نشرت أكثر فصوله وفصول ليلى المريضة بمجلة الرسالة الغراء...

وقد رجع الدكتور إلى مصر ، ومعه فوق ما تقدم من كتبه ، مؤلفه عن عبقرية الشريف الرضي ، وهو مجموعة محاضرات أدبية ألقاها المؤلف في قاعة كلية الحقوق ببغداد ، فكان أول باحث خص الشريف بمجزءين كبيرين ، وقد استمع إليها كثير من الأساتذة والطلاب ، وصرح الدكتور أنه وقف من الشاعر موقف الصديق ، فتحدث كثيرا عن محاسنه وأشار إلى عيوبه برفق ولين ، وقد قسم مواضيع الكتاب تقسيما نسبيا لم تتضح معالمه ورسومه ، إذ لاحظت أن ما كتبه عن غراميات الشريف يصلح أن يكون بين ما كتبه عن حجازيات الشاعر ، وما كتبه عن غرائب الوفاء يصلح أن يندرج فيما يليه من الأبواب دون التباس ، وقد أدت سرعة المؤلف ومجلته إلى ذلك ، ولست أجد ما أقوله غير أنه سطر أبحاثه بروح الشاعر الذي لا ينسى التحليق والطيران هذا وقد عين الدكتور مبارك بعد عودته من العراق مفتشا للغة العربية بالمدارس الأجنبية ، وكان عمله الرسمي لا يكلفه جهدا كبيرا ، فتفرغ للنشاط الأدبي ، واتخذ من مجلة الرسالة الغراء ميدانا للسجال والحوار ، وكانت هذه الفترة من حياته ألمع عهوده الزاهرة ، حيث اعتبره المتأدبون في العالم العربي قائدا يتولى توجيه الشباب في صحيفة ممتازة ، وأخذوا يتابعون أبحاثه وقصائده ومعاركه في اهتمام ، وكان يسأل فيجيب ، ويرشد فيطاع

وقد حال على صفحات الرسالة كثيراً من الكتب الأدبية التي تقررها الوزارة لأعلام الأدباء في مسابقة التوجيهية ، كفيض الخاطر ، ووحي الرسالة ، ومطالعات في الكتب ، والمختار ، وإبراهيم الكاتب ، وحديث عيسى بن هشام ، والمنتخبات ، وتحرير المرأة ، والشوقيات ، وديوان صبري وحافظ ، وغيرها من أشهر المؤلفات . وكان يبدأ مقاله بمقدمة عن الكاتب ، مشيراً إلى طريقته في التصوير والعرض ، ثم يحلل أبواب الكتاب موجهاً الأنظار إلى نقطه الرئيسية وعناصره الهامة ، ويختم بحثه بإرشادات للطلاب تهديهم إلى طريقة الانتفاع بالكتاب ، وهو بذلك يفتح أمام الناشئة طرق البحث والاستيعاب ، وقد كثرت خواطره الطريفة التي كتبها تحت عنوان « الحديث ذو شجون » ورأى فيها الناس فنا صادقاً يعرض خوالج الكاتب ونوازعه في صور مشرقة أخاذة ، وينتقل بالعقول من موضوع إلى موضوع كما ينتقل الطائر من غصن إلى غصن ، دون أن يجد القراء أثراً للسآمة والتكلف ، بل كانوا ينعشون بنسيم هادئ يحمل عبير الرياض ، ولو استمر الكاتب بموضعه في الرسالة لأسعد القراء بلطائفه الرقاق ، ولكنه هجرها بعد سبعة أعوام ، وكنت أسأل عن سبب هذه القطيعة بإلحاح حتى وجدت الإجابة في ديوان « ألحان الخلود » إذ أعلن الدكتور أنه تضايق كثيراً حين سمح الأستاذ الزيات للأستاذ العمراوي بنقد الدكتور في بعض أبحاثه بالنثر الفني !! فكان ذلك مدعاة القطيعة والحرمان !! وليت شعري كيف يضيق المبارك بالنقد وقد شب في ميدانه ، وصال في حلبته راكباً جواده ، وشاهراً سيفه ؟ ثم هل يستطيع صاحب الرسالة أن يمنع إنساناً ما من النقد في حدود المنهج العلمي الصريح ؟ إني لأذكر أن الأستاذ الزيات قد كتب مقالا عن إصلاح الأزهر بالرسالة فرد عليه أستاذنا المغفور له الشيخ محمود العمراوي ردا صاخباً ، وأبى الزيات أن يحذف حرفاً واحداً مما كتب الناقد

العنيف ، فكيف يجزع الدكتور من نقد علمى برىء ؟ !

هذا ما كان !!

وقد امتحن الدكتور بتحرير البلاغ بعد الرسالة ، وواصل نشر أحاديثه ذوات الشجون ، ويؤسفني أن أذكر أنه حاد كثيراً من النهج الذى سلكه بالرسالة ، فبعد أن كان يذكر طرائف الأدباء وينقد آثارهم الأدبية وحدها ، أخذ ينقد السلوك الشخصي ويتتبع ما يصله من الهنات صدقاً وكذباً ، وقد يختلق — غفر الله له — المثالب اختلاقاً ويلصقها بالناس . وقد هاجم وزير المعارف إذ ذاك مهاجمة أدت إلى فصله من الوزارة ، فتعرض للبؤس تعرضاً مؤلماً . . . ثم تداركه الأستاذ على أيوب فألحقه بالقسم الأدبى فى دار الكتب المصرية ، ومكث عدة أشهر لا يقبض مليما واحداً ، فتشعبت همومه ، وعيل صبره ، واستسلم إلى السكر والتبذل والاستخفاف !! وكأنه حن إلى الإنتاج الأدبى فجمع أشعاره الكثيرة فى ديوان شامل أسماه « ألحان الخلود »

ولن أتعرض إلى منزلته الشعرية الآن ففى نيتى أن أكتب منها بحثا مستقلا بعد حين ، ولكن أذكر أن الدكتور قد مهد لأكثر قصائده بمقدمات مؤلمة كان الأفضل ألا يكتب منها حرفا واحدا ، فهى — فى أكثرها — تجريح شنيع لأناس أفاضل يحتلون منازل كريمة فى عوالم السياسة والأدب والاجتماع . والعجيب أن مؤلفات الدكتور السالفة تحفل بالثناء عليهم وتمدد مآثرهم البيض فى شتى ميادين الحياة !! كما لم يدخر وسعا فى التحدث عن نزواته ولحظات ضعفه ، كأنه مولع بفضيحته والتشهير بنفسه على رءوس الأشهاد . وأنا حين أعلل ما انحدر إليه الدكتور فى خريف حياته من إسفاف ، أحيل ذلك إلى ما وقر فى ذهنه من أن الأدب لا يبلغ ذروته إلا إذا كشف عن النزوات البشرية وجلا للقراء ما يكمن فى أعماق الكاتب من رواسب هابطة ، وشهوات مسفة !! وذلك مذهب مخرج لاحت بوادره — بصورة خافتة — قبل ذلك فى بعض مؤلفات الدكتور ، ثم اشتملت على صفحات البلاغ وفى ديوانه ألحان الخلود بنوع خاص !!

وقد كان الدكتور ذا صلات كبيرة بأعلام عصره فى الأزهر والجامعة ودار العلوم والصحافة والجمعيات العلمية ، فسجل عن تاريخهم الشئ الكثير فى مؤلفاته ، حتى لتصلح أن تكون مرجعا للحركة الفكرية فى العصر الحديث ! وفى كتاب الأسمار والأحاديث تشريح هام لآراء المفكرين من أدباء وشعراء ، وقد أجرى الدكتور على ألسنتهم كثيرا من المعاني التى يحتمل أن تصدر عنهم ، إن لم يكن بعضها صورة حقيقية لما قالوه . وقد اختص المدرسة الاتباعية فى الشعر بحوار كبير ، ونقل كثيرا من آراء الهراوى والأسمر والجارم والزين وعبد الجواد رمضان والقاياتى وعبد الله عفيفى ، وكلها تدور حول الشعر والشعراء فى نسق مؤتلق وضئ . ومهما يكن من شئ فسيظل القراء يذكرون لمبارك أسلوبه الجميل الرقراق ، ويشهدون أنه قد نقل الغزل الرقيق من ميدان الشعر إلى ميدان النثر ، فوصف فى مقالاته العواطف الثائرة ، وشرح الأحاسيس الملتهبة ، ونقل للقراء زفرات مبثوثة من الوجد الصارخ ، إذ تحدث عن مسارح لهوه وملاعب صباه فى سنتريس وأسيوط وباريس ومصر الجديدة وبغداد وحلوان ، وأحسن القول فى صدود الحسان ، ومعاقرة الكؤوس ، ونزق الصبا ، وعنفوان الشباب ، فى طراز فاتن يأخذ بالألباب

لقد كان الدكتور مبارك — رحمه الله — حركة دائبة مؤثرة فى الأفق الأدبى ، ولو قدر له أن يجتاز الأعوام الثمانية التى مرت عليه فى خريفه كما اجتاز عمره السالف بين الصحف والأوراق لكان ذا شأن عظيم ، ولكن القدر شاء أن يأسف عليه الأدباء مرتين ، فهم يأسفون لما غمره فى أخريات أيامه من القلق والاضطراب ، كما يأسفون لرحيله الصامت الساكن بعد أن ملأ الدنيا وشغل الناس ، فجف الغدير المترقرق ، وصوح الزهر الناضر ، وطار البلبل الصداح

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامر

أبوتيج محمد رجب البيومى